أوهام الاستغناء عن النفط

الاعتقاد السائد لدى البعض بإمكانية الاستغناء عن مصادر الطاقة النفطية خلال المستقبل المنظور، دون أي دلائل أو ثوابت علمية، أمر لا نتفق معه على الإطلاق. وعلى الرغم من كثرة البحوث والدراسات العلمية التي تقوم بها المؤسسات البحثية في جميع أنحاء العالم، فليس في الأفق ما يُشير إلى احتمال ظهور مصادر طاقة جديدة أو متجددة، من الممكن أن تكون بديلًا مناسبًا في المدى المنظور للمشتقات النفطية مع وجودها ووفرتها، وكونها متميزة، وتتمتع دون غيرها بخصائص كثيرة. ونظرًا لما يمثله هذا الاعتقاد من السلبيات على مستقبل ثروتنا النفطية فحري بنا تفنيد أخطار تداول مثل هذه الظاهرة على مستقبل ثروتنا الناضبة. فقد أصبحت المصادر النفطية جزءًا لا يتجزأ من حياة البشر، ولها الأهمية نفسها التي لمصادر المياه. وحتى بعد النضوب الطبيعي للمواد النفطية ستعاني المجتمعات البشرية محاولة التأقلم مع مصادر الطاقة الجديدة التي من المتوقَّع أن تكون مختلفة تمامًا عن طبيعة المشتقات النفطية وعن بنيتها التحتية، وحتمًا أكبر تكلفة.

قالوا عن إمكانية تطوير إنتاج الطاقة النووية بواسطة عملية الاندماج النووي، وهي عبارة عن محاكاة لما يحدث داخل كوكب الشمس من تحول أو اندماج نواتين هيدروجين لتكون ذرة هليوم، وما يُصاحب ذلك من توليد طاقة حرارية هائلة، وهي أيضًا الطريقة نفسها التي تُستخدَم في تفجير القنبلة الهيدروجينية (بواسطة إطلاق قنبلة ذرية داخلها).

والمقصود هنا، هو القدرة على توليد طاقة نووية كبيرة متجددة ونظيفة وخالية من المواد المُشعة والمخلفات الضارة بالبيئة وبالمخلوقات الحية، وهذه العملية هي عكس عملية الانشطار الذري الذي تعمل الآن بموجبه مرافق توليد الطاقة النووية التي تنتج عنها مخلفات إشعاعية مُضِرَّة، وقد مر أكثر من ٥٠ عامًا على بدء البحوث في هذا المجال دون أن يتوصلوا إلى نتيجة مُشجعة؛ ولذلك فإن الأمل ضعيف جدًا في حل هذه المعضلة العلمية خلال العقود المقبلة، والعلم عند الله، وتحدثوا عن تكنولوجيا فصل الهيدروجين عن الماء بطرق اقتصادية ينتج عنها فائض طاقة، والمعروف عن الهيدروجين أنه ناقل للطاقة، وليس مصدرًا للها؛ أي إننا نحتاج إلى طاقة من أجل أن نحصل على الهيدروجين، وتكون المحصلة هي كمية الطاقة نفسها أو أقل. والطاقة الشمسية هي من دون أي جدال الأفضل بعد المصادر النفطية، وهي مصدر مستديم وصديق للبيئة ومتوافر بكميات لا حدود لها، ومن المتوقع أن تكون في المستقبل القريب الأرخص بين المصادر الأخرى بما في ذلك النفط، ولكن على الرغم من كل المزايا الإيجابية التي تتمتع بها الطاقة الشمسية فهي لا تقوم بجميع وظائف المصادر النفطية التي اعتاد المجتمع الدولي على استخدامها في جميع شؤون حياتنا على

مدى العقود الماضية، ولكنها أيضًا الأفضل بوصفها رافدًا للنفط عندما يقل الإنتاج عن كميات الطلب العالمي.

وموضوع إمكانية التحول من الطاقة النفطية التي عاش العالم على خيرها ما يزيد على الـ ١٠٠ عام، إلى مصدر جديد للطاقة أقل كلفة وتفوق مميزاته الطبيعية ما يتمتع به النفط التقليدي، فهو قديم جديد. في الماضي، وخلال عقود الستينيات والسبعينيات الميلادية كنا نسمع عن شائعات دعوات الاستغناء عن نفط (العرب) ولكنها كانت دعايات مُبطنة بالتهديد الذي يدعو إلى توفير النفط في الأسواق العالمية بكميات كبيرة لضمان عدم ارتفاع أسعاره، وكانت تلك الشائعات، مع عدم جديتها، ربما أوهمت البعض منا بأنه في الإمكان إيجاد بدائل أكثر منافَسة، وهو أمر لم يُثبته العلم، ولا يمكن قبوله الآن، وفي السنوات المتأخرة لا يزال هناك منْ يربطون بين ارتفاع الأسعار نتيجة لارتفاع مستوى الطلب ونقص المعروض واحتمال البحث عن بديل يكون أقل تكلفة، وذلك أيضًا مبني على عدم الدقة في التقدير وضبابية الرؤية البعيدة. ونحن على يقين بأن استخدام المشتقات النفطية، بما فيها الغاز، سيظل لسنوات طويلة مقبلة مصدرًا مهمًا للطاقة وكلقيم للمصانع البتروكيماوية حتى آخر برميل بعد عمر طويل قد يمتد إلى مئات السنين.

ورب سائل يقول: وما يُضيرنا إذا شاع خبر ما، أو أبدى شخص رأيه في شأن احتمال العزوف عن استخدام ثروتنا النفطية لسبب أو لآخر؟ وهذا في الواقع لن يُغير المسار الذي نحن عليه اليوم إذا أدركنا أن ذلك لم يكن مبنيًا على أسس علمية وبراهين منطقية، ولكن هذا أيضًا لا يعني أن جميع